# كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

## وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الـذي صـرف الأمـور بتـدبيره وعـدل تـركيب الخلق فأحسن في تصـويره وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره وحرسه من الزيادة والنقصان في شـكله ومقـاديره وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهـذيبها بتخويفه وتحـذيره وسهل على خـواص عبـاده تهـذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسـيره وامتن عليهم بتسـهيل صـعبه وعسيره والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشـيره ونـذيره الـذي كـان يلـوح أنـوار النبـوة من بين أسـاريره ويستشـرف حقيقة الحق من مخايله وتباشـيره وعلى آله وأصحابه الـذين طهـروا وجه الإسـلام من ظلمة الكفر وديـاجيره وحسـموا مـادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره.

أما بعد فالخلق الحسن صفة سيد المرسـلين وأفضل أعمـال الصـديقين وهو على التحقيق شـطر الـدين وثمـرة مجاهـدة المتقين ورياضة المتعبـدين والأخلاق السـيئة هي السـموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضـحة والرذائل الواضـحة والخبـائث المبعـدة عن جوار رب العالمين المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين وهي الأبواب المفتوحة إلى نـار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئـدة كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبـواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنـان وجـوار الـرحمن والأخلاق الخبيثة أمـراض القلـوب وأسـقام النفوس إلا أنه مـرض يفـوت حيـاة الأبد وأين منه المـرض الـذي لا يفـوت إلا حيـاة الجسد ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحيـاة الفانية فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلـوب وفي مرضـها فـوت حيـاة باقية أولى وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تـراكمت وتـرادفت العلل وتظـاهرت فيحتـاج العبد إلى تـأنق في معرفة علمها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى قد أفلح من زكاها وإهمالها هو المراد بقوله وقد خاب من دساها ونحن نشير في هذا الكتـاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها ونحن نـذكر ذلك ونجعل علاج البـدن مثـالا له ليقـرب من الأفهـام دركه ويتضح ذلك ببيـان فضـيلة حسن الخلق ثم بيـان حقيقة حسن الخلق ثم بيـان قبـول الأخلاق للتغير بالرياضة ثم بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق ثم بيان الطرق الـتي بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ثم بيان العلامات التي بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التي بها يعرف الإنسـان عيـوب نفسه ثم بيـان شـواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشـهوات لا غـير ثم بيـان علامـات حسن الخلق ثم بيـــان الطريق في رياضة الصـــبيان في أول النشو ثم بيـــان شـــروط الإرادة ومقـــدمات المجاهدة فهي أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى بيـان فضـيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه وإنك لعلى خلق عظيم وقـالت عائشة رضي الله عنها كـان رسـول الله صـلى الله عليه وسلم خلقه القـرآن حـديث عائشة كـان خلقه القـرآن تقـدم وهو عند مسـلم وسـأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجـاهلين ثم قـال صـلى الله عليه وسـلم هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك حـديث تأويل قوله تعـالى خذ العفو الآية هو أن تصل من قطعك الحديث أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان وقـال صـلى الله عليه وسـلم إنما بعثت لأتمم مكـارم الأخلاق حـديث بعثت لأتمم مكـارم الأخلاق أخرجه أحمد والحـاكم والـبيهقي من حـديث أبي هريـرة وتقـدم في آداب الصـحبة

وقـال صـلى الله عليه وسـلم أثقل ما يوضع في المـيزان يـوم القيامة تقـوى الله وحسن الخلق حـديث أثقل ما يوضع في المـيزان خلق حسن أخرجه أبو داود والترمـذي وصـححه من حديث أبي الدرداء وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال يا رسول الله ما الدين قال حسن الخلق فأتاه من قبل يمينه فقال يا رسول الله ما الـدين قال حسن الخلق ثم أتاه من قبل شـماله فقـال ما الـدين فقـال حسن الخلق ثم أتـاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين فالتفت إليه وقال أما تفقه هو أن لا تغضب حـديث جـاء رجل إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم من بين يديه فقـال ما الـدين قـال حسن الخلق الحديث أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قـدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلا وقيل يا رسول الله ما الشؤم قـال سـوء الخلق حـديث ما الشـؤم قـال سوء الخلق أخرجه أحمد من حديث عائشة الشؤم سوء الخلق ولأبي داود من حـديث رافع بن مكيث سوء الخلق شؤم وكلاهما لا يصح وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسـلم أوصني فقال اتق الله حيثما كنت قال زدني قال أتبع السيئة الحسنة تمحها قال زدني قـال خالق الناس بخلق حسن حديث قال رجل أوصني قال اتق الله حيثما كنت الحـديث أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح وسئل عليه السلام أي الأعمـال أفضل قـال خلق حسن وقال صلى الله عليه وسلم ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار حديث ما حسن الله خلق امرئ وخلقه فتطعمه النار تقدم في آداب الصـحبة وقـال الفضـيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وسـلم إن فلانة تصـوم النهـار وتقـوم الليل وهي سـيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال لا خير فيها هي من أهل النار وقـال أبو الـدرداء سـمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـول أول ما يوضع في المـيزان حسن الخلق والسـخاء ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قوني فقواه بحسن الخلق والسـخاء ولما خلق الله الكفر قـال اللهم قوني فقواه بالبخل وسوء الخلق حديث أبي الدرداء أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق الحديث لم أقف له على أصل هكذا ولأبي داود والترمذي من حديث أبي الـدرداء ما من شـيء في المـيزان أثقل من حسن الخلق وقـال غـريب وقـال في بعض طرقه حسن صحيح وقال صلى الله عليه وسلم إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لـدينكم إلا السـخاء وحسن الخلق ألا فزينـوا دينكم بهما حـديث إن الله اسـتخلص هـذا الـدين لنفسه الحديث أخرجه الدارقطني في كتاب المستجاد والخرائطي في مكـارم الأخلاق من حـديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين وقال عليه السلام حسن الخلق خلق الله الأعظم حديث حسن الخلق خلق الله الأعظم أخرجه الطـبراني في الأوسط من حـديث عمـار ابن ياسر بسند ضعيف وقيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيمانا قال أحسـنهم خلقا حـديث قيل يا رسـول الله أي المؤمـنين أفضـلهم إيمانا قـال أحسـنهم خلقا أخرجه أبو داود والترمـذي والنسـائي والحـاكم من حـديث أبي هريـرة وتقـدم في النكـاح بلفظ أكمل المؤمـنين والطبراني من حديث أبي أمامة أفضلكم إيمانا أحسنكم خلقا وقال صـلى الله عليه وسـلم إنكم لن تسـعوا النـاس بـأموالكم فسـعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق حـديث إنكم لن تسـعوا النـاس بـأموالكم فسـعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق أخرجه الـبزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات وقـال أيضا صلى الله عليه وسلم سـوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل حـديث سـوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل أخرجه ابن حبان في الضـعفاء من حـديث أبي هريرة والبيهقي في الشعب من حـديث ابن عبـاس وأبي هريـرة أيضا وضـعفهما ابن جرير وعن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك امـرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك حــــديث إنك امــــرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك أخرجه الخـرائطي في مكـارم الأخلاق وأبو العبـاس الـدغولي في كتـاب الآداب وفيه ضـعف وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم أحسن النـاس وجها وأحسـنهم خلقا حديث البراء كـان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أحسن النـاس وجها وأحسـنهم خلقا أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن وعن أبي مسعود البدري قـال كـان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـول في دعائه اللهم حسـنت خلقي فحسن خلقي حديث أبي مسـعود البـدري اللهم كما حسـنت خلقي فحسن خلقي أخرجه الخـرائطي في

مكـارم الأخلاق هكـذا من رواية عبد الله بن أبي الهـذيل عن أبي مسـعود البـدري وإنما هو ابن مسعود أي عبد الله هكـذا رواه ابن حبـان في صـحيحه ورواه أحمد من حـديث عائشة وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يكـثر الدعاء فيقول اللهم إني أسـألك الصـحة والعافية وحسن الخلق حـديث عبد الله بن عمـرو اللهم إني أسـألك الصـحة والعافية وحسن الخلق أخرجه الخـرايطي في مكـارم الأخلاق بإسناد فيه لين وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال كـرم المـؤمن دينه وحسـبه حسن خلقه ومروءته عقله حـديث أبي هريـرة كـرم المـرء دينه ومروءته عقله وحسن خلقه أخرجه ابن حبـان والحـاكم وصـححه على شـرط مسـلم والـبيهقي قلت فيه مسـلم بن خالد الـزنجي وقد تكلم فيه قـال الـبيهقي وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمر وقال إسناد صحيح وعن أسامة بن شـريك قـال شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ما خـير ما أعطى العبد قـال خلق حسن حديث أسامة بن شريك شهدت الأعاريب يسألون رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ما خير ما أعطى العبد قال خلق الحسن أخرجه ابن ماجه وتقـدم في آداب الصـحبة وقـال صـلى الله عليه وسـلم إن أحبكم إلي وأقـربكم مـني مجلسا يـوم القيامة أحاسـنكم أخلاقا حديث إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسا يـوم القيامة أحاسـنكم أخلاقا أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حـديث أبي هريـرة إن أحبكم إلى الله أحاسـنكم أخلاقا وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا وقد تقدم الحديثان في آداب الصحبة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيش به بين النـاس حـديث ابن عباس ثلاث من لم يكن فيه أو واحـدة منهم فلا يعتد بشـيء من عمله الحـديث أخرجه الخـرايطي في مكـارم الأخلاق بإسـناد ضـعيف ورواه الطـبراني في الكبـير وفي مكـارم الأخلاق من حديث أم سلمة وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصـلاة اللهم أهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصـرف عـني سـيئها إلا أنت حديث اللهم اهدني لأحسن الأخلاق الحـديث أخرجه مسـلم من حـديث علي وقـال أنس بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم يوما إذ قـال إن حسن الخلق ليـذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد حديث أنس إن حسن الخلق ليـذيب الخطيئة كما تـذيب الشـمس الجليد أخرجه الخـرايطي في مكـارم الأخلاق بسـند ضـعيف ورواه الطـبراني والطيالسي والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكـذا رواه من حـديث أبي هريرة وضعفه أيضا وقال صلى الله عليه وسلم من سعادة المرء حسن الخلق حـديث من سعادة المرء حسن الخلق أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشـعب من حديث جابر بسـند ضـعيف وقـال صـلى الله عليه وسـلم اليمن حسن الخلق حـديث اليمن حسن الخلق أخرجه الخرايطي في مكـارم الأخلاق من حـديث علي بإسـناد ضـعيف وقـال صلى الله عليه وسـلم لأبي ذر يا أبا ذر لا عقل كالتـدبير ولا حسب كحسن الخلق حـديث يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر وعن أنس قال قالت أم حبيبة لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم أرأيت المـرأة يكـون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون قـال لأحسـنهما خلقا كان عندها في الدنيا يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة حديث أنس قالت أم حبيبة يا رسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان الحديث أخرجه البزار والطبراني في الكبـير والخـرايطي في مكـارم الأخلاق بإسـناد ضـعيف وقـال صـلى الله عليه وسـلم إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكـرم مرتبته حـديث إن المسـلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه الحديث أخرجه أحمد من حــديث عبد الله بن عمــرو بالرواية الأولى ومن حــديث أبي هريــرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة وفي رواية درجة الظمـآن في الهـواجر وقـال عبد الـرحمن بن سـمرة كنا عند النـبي صـلى الله عليه وسلم فقال إني رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمـتي جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجـاء حسن خلقه فأدخله على الله تعـالى حـديث عبد الـرحمن بن سـمرة إني

رأيت البارحة عجبا الحديث أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق بسند ضـعيف وقـال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخـرة وشـرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة حـديث إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجـات الآخـرة الحـديث أخرجه الطـبراني والخـرايطي في مكـارم الأخلاق وأبو الشـيخ في كتـاب مكـارم الأخلاق وأبو الشـيخ في كتـاب طبقـات الأصـبهانيين من حـديث أنس بإسـناد جيد وروي أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويسـتكثرنه عالية أصـواتهن على صـوته فلما اسـتأذن عمر رضي الله عنه تبـادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضـحك فقـال عمر رضي الله عنه مم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال عجبت لهـؤلاء اللاتي كن عنـدي لما سـمعن صوتك تبـادرن الحجـاب فقـال عمر أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسـول الله ثم أقبل عليهن عمر فقال يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قلن نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صـلى الله عليه وسـلم أيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سـالكا فجا إلا سـلك فجا غـير فجك حديث إن عمر استأذن على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وعنـده نسـاء من قـريش يكلمنه ويستكثرنه الحديث متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفـوح حـديث سـوء الخلق ذنب لا يغفر الحـديث أخرجه الطـبراني في الصغير من حديث عائشة ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سـوء الخلق فإنه لا يتـوب من ذنب إلا عاد في شر منه وإسـناده ضـعيف وقـال صـلى الله عليه وسـلم إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم حديث إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم أخرجه الطبراني والخرايطي في مكـارم الأخلاق وأبو الشـيخ في طبقـات الأصـبهانيين من حـديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بحديثين الآثار قال ابن لقمان الحكيم لأبيه يا أبت أي الخصال من الإنسان خير قال الدين قال فإذا كانت اثنتين قال الـدين والمـال قـال فإذا كانت ثلاثا قال الدين والمال والحياء قال فإذا كانت أربعا قـال الـدين والمـال والحيـاء وحسن الخلق قال فإذا كانت خمسا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء قال فإذا كانت سـتا قـال يا بـني إذا اجتمعت فيه الخمس خصـال فهو نقي تقى والله ولي ومن الشيطان بري وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقـال أنس بن مالك إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غـير عابد ويبلغ بسـوء خلقه أسـفل درك في جهنم وهو عابد وقـال يحـيى بن معـاذ في سـعة الأخلاق كنـوز الأرزاق وقـال وهب ابن منبه مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعـاد طينا وقـال الفضـيل لأن يصـحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني عابد سـيي الخلق وصـحب ابن المبـارك رجلا سـيي الخلق في سـفر فكـان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقـال بكيته رحمة له فارقته وخلقه معه لم يفارقه وقـــــــال الجنيد أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمـال الإيمـان وقال الكنـاني التصـوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصـوف وقـال عمر رضي الله عنه خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال وقال يحيى بن معاذ سـوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كـثرة السـيئات وسـئل ابن عباس ما الكرم فقال هو ما بين الله في كتابه العزيز إن أكرمكم عند الله أتقـاكم قيل فما الحسب قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا وقـال لكل بنيـان أسـاس وأسـاس الإسـلام حسن الخلق وقـــال عطـــاء ما ارتفع من ارتفع إلا بـــالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السـالكون آثـاره بحسن الخلق.

## بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

اعلم أن النـاس قد تكلمـوا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو وما تعرضـوا لحقيقته وإنما تعرضـوا لثمرته ثم لم يسـتوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كـان حاضـرا في ذهنه ولم يصـرفوا العناية إلى ذكر حـده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته

على التفصيل والاستيعاب وذلك كقول الحسن حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى وقال الواسطي هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى وقال شاه الكرماني هو كف الأذى واحتمال المؤن وقال بعضهم هو أن يكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقال الواسطي مرة هو إرضاء الخلق في السراء والضراء وقال أبو عثمان هو الرضا عن الله تعالى وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه وقال مرة أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس وقال علي رضي الله عنه حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال وقال الحسين بن منصور هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق وقال أبو سعيد الخراز هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى فهذا وأمثاله كثير وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضاوكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة فنقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا يقال فلان حسن الخلق والخلق أي حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ويراد بالخلق الصورة الباطنة وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم فههنا أربعة أمور أحدها فعل الجميل والقبيح والثاني القدرة عليهما والثالث المعرفة بهما والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن وإما القبيح وليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى الرابع وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل فالخلق إذا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهي التي قال الله فيها ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة أعني إشارة العقل والشرع وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هي القدرة ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل والغضب هو

الـذي تنفد فيه الإشـارة ومثاله مثـال كلب الصـيد فإنه يحتـاج إلى أن يـؤدب حـتى يكـون استرساله وتوقفه بحسب الإشـارة لا بحسب هيجـان شـهوة النفس والشـهوة مثالها مثـال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروضا مؤدبا وتارة يكون جموحا فمن استوت فيه هذه الخصـال واعتـدلت فهو حسن الخلق مطلقا ومن اعتـدل فيه بعضـها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجـزاء وجهه دون بعض وحسن القـوة الغضـبية واعتـدالها يعـبر عنه بالشـجاعة وحسن قـوة الشـهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طـرف الزيـادة تسـمى تهورا وإن مالت إلى الضـعف والنقصـان تسـمى جبنا وخـورا وإن مـالت قـوة الشـهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها وإن مالت إلى النقصـان تسـمى جمـودا والمحمـود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل إذا فات فليس له طرفا زيـادة ونقصـان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجــور وأما الحكمة فيســمى إفراطها عند الاســتعمال في الأغــراض الفاســدة خبثا وجربــزة ويســمى تفريطها بلها والوسط هو الــذي يختص باسم الحكمة فـإذن أمهـات الأخلاق وأصـولها أربعة الحكمة والشـجاعة والعفة والعـدل ونعـني بالحكمة حالة للنفس بها يــدرك الصــواب من الخطأ في جميع الأفعــال الاختيارية ونعــني بالعـدل حالة للنفس وقـوة بها تسـوس الغضب والشـهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقبـاض على حسب مقتضـاها ونعـني بالشـجاعة كـون قـوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتـأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الأصـول الأربعة تصـدر الأخلاق الجميلة كلها إذ من اعتـدال قـوة العقل يحصل حسن التـدبير وجـودة الـذهن وثقابة الـرأي وإصـابة الظن والتفطن لـدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ومن إفراطها تصدر الجربـزة والمكر والخـداع والـدهاء ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمــور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمرا في شـيء دون شـيء والفـرق بين الحمق الجنـون أن الأحمق مقصـوده صـحيح ولكن سـلوكه الطريق فاسد فلا تكـون له روية صـحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض وأما المجنون فإنه يحتار ما لا ينبغي أن يختـار فيكـون أصل اختيـاره وإيثـاره فاسـدا وأما خلق الشـجاعة فيصـدر منه الكـرم والنجـدة والشـهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتــودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة وأما إفراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكـبر والعجب وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجـزع والخساسة وصـغر النفس والانقبـاض عن تنـاول الحق الـواجب وأما خلق العفة فيصـدر منه السـخاء والحيـاء والصـبر والمسـامحة والقناعة والـورع واللطافة والمسـاعدة والظـرف وقلة الطمع وأما ميلها إلى الإفــراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبـذير والتقتـير والريـاء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واسـتحقار الفقـراء وغـير ذلك فأمهـات محاسن الأخلاق هـذه الفضـائل الأربعة وهي الحكمة والشـجاعة والعفة والعـدل والبـاقي فروعها ولم يبلغ كمـال الاعتـدال في هـذه الأربع إلا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون في القـرب والبعد منه فكل من قـرب منه في هـذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضـدادها اسـتحق أن يخـرج من بين البلاد والعبــاد فإنه قد قــرب من الشــيطان اللعين المبعد فينبغي أن يبعد كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يقتـدي به ويتقـرب إليه فـإن رسـول الله صـلى الله عليه وســلم لم يبعث إلا ليتمم مكــارم الأخلاق كما قــال حــديث بعثت لأتمم مكــارم الأخلاق تقدم في آداب الصحبة وقد أشار القـرآن إلى هـذه الأخلاق في أوصـاف المؤمـنين فقـال تعـالى إنما المؤمنـون الـذين آمنـوا بالله ورسـوله ثم لم يرتـابوا وجاهـدوا بـأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون فالإيمـان بالله وبرسـوله من غـير ارتيـاب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الـذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قــوة الغضب

على شرط العقل وحد الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم إشارة إلى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعا فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

## بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير واستدل فيه بأمرين أحدهما أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى والثاني أنهم قالوا حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده فنقول لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسنوا أخلاقكم حديث حسنوا أخلاقكم أخرجه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ يا معاذ حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فأن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان أحدهما قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فإنها أقدم وجودا إذ الصبي في مبدإ الفطرة تخلق له الشهوة ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز والسبب الثاني أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب الأولى وهو الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم والثالثة أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال والرابعة أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد

وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب وفي مثله قيل ومن العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والأول من هؤلاء جاهل فقط والثاني جاهل وضال والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به وهو قولهم إن الآدمي ما دام حيا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعا وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقادا للعقل ولذلك قال الله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر حديث إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق حديث أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا فكان الغضب لا يخرجه عن الحق أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال لأن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبي سعيد الخدري وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه ولهما من حديث عائشة وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ولمسلم ما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه الحديث وقال تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقال والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين وقال في الغضب أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال صلى الله عليه وسلم خير الأمور أوساطها حديث خير الأمور أوساطها أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم قال الله تعالى إلا من أتى الله بقلب سليم والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أي لا يكون ملتفتا إلى المال ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن التهور والعفة بين الشره والجمود وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم هذا هو المطلوب وهو ممكن نعم يجب على الشيخ

المرشد للمريد أن يقبح عنـده الغضب رأسا ويـذم إمسـاك المـال رأسا ولا يـرخص له في شيء منه لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عذرا في اسـتبقاء بخله وغضـبه وظن أنه القـدر المـرخص فيه فـإذا قصد الأصل وبـالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سـورته بحيث يعـود إلى الاعتـدال فالصـواب له أن يقصد قلع الأصل حـتى يتيسر له القـدر المقصـود فلا يكشف هــذا السر للمريد فإنه موضع غـــرور الحمقى إذ يظن بنفسه أن غضـــبه بحق وأن إمساكه بحق.

## بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة وإلى اعتـدال قـوة الغضب والشـهوة وكونها للعقل مطيعة وللشـرع أيضا وهـذا الاعتـدال يحصل على وجهين أحدهما بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسـان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتـدلتين منقـادتين للعقل والشـرع فيصـير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكـذا سـائر الأنبيـاء صـلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكــون في الطبع والفطــرة ما قد ينــال بالاكتساب فرب صبي خلق صـادق اللهجة سـخيا جريا وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتيـاد ومخالطة المتخلقين بهـذه الأخلاق وربما يحصل بـالتعلم والوجه الثـاني اكتسـاب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضـيها الخلق المطلــوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجــود فطريقه أن يتكلف تعــاطي فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويـواظب عليه تكلفا مجاهـدا نفسه فيه حـتى يصــير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصــير به جــوادا وكــذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديــدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصـــير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا فالسـخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة و المتواضع هو الـذي يسـتلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعـود النفس جميع العـادات الحسـنة وما لم تـترك جميع الأفعـال السـيئة وما لم تـواظب عليه مواظبة من يشـتاق إلى الأفعـال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها كما قال صلى الله عليه وسلم وجعلت قرة عيني في الصـلاة حـديث وجعلت قـرة عيـني في الصـلاة أخرجه النسـائي من حـديث أنس وقد تقدم ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصـان ولا ينال كمال السعادة به نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خـير ولكن بالإضـافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى وإنها لكبـيرة إلا على الخاشـعين وقـال صلى الله عليه وسلم اعبد الله في الرضا فإن لم تسـتطع ففي الصـبر على ما تكـره خـير كثير حديث اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثــير أخرجه الطـــبراني ثم لا يكن في نيل الســـعادة الموعـــودة على حسن الخلق اســـتلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمـان دون زمـان بل ينبغي أن يكـون ذلك على الـدوام وفي جملة العمر وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما سئل صـلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال طول العمر في طاعة الله تعالى حديث سئل عن السعادة فقـال طول العمر في عبـادة الله رواه القضـاعي في مسـند الشـهاب وأبو منصـور الـديلمي في مسـند الفـردوس من حـديث ابن عمر بإسـناد ضـعيف وللترمـذي من حـديث أبي بكـرة وصححه أي الناس خـير قـال من طـال عمـره وحسن عمله ولـذلك كـره الأنبيـاء والأوليـاء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجــزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقــوى وأرسخ وإنما مقصــود العبــادات تأثيرها في القلب وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبـادات وغاية هـذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعـالى فلا يكـون شـيء أحب إليه من لقـاء الله تعـالى عز وجل فلا يســتعمل جميع ماله إلا على الوجه الــذي يوصــله إليه وغضــبه وشــهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعـالى وذلك بـأن يكـون

موزونا بميزان الشرع والعقل ثم يكـون بعد ذلك فرحا به مسـتلذا له ولا ينبغي أن يسـتبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين ومصير العبادات لذيـذة فـإن العـادة تقتضي في النفس عجـائب أغـرب من ذلك فإنا قد نـرى الملـوك والمنعمين في أحـزان دائمة ونـرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقمـاره وما هو فيه ما يسـتثقل معه فـرح النـاس بغير قمار مع أن القمار ربما سلبه ماله وخـرب بيته وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطـول إلفه له وصـرف نفسه إليه مـدة وكـذلك اللاعب بالحمـام قد يقف طـول النهـــار في حر الشـــمس قائما على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بـــالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السـماء بل نـرى الفـاجر العيـار يفتخر بما يلقـاه من الضـرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته بالصبر على ذلك حتى يرى ذلك فخـرا لنفسه ويقطع الواحد منهم إربا إربا على أن يقر بما تعاطـاه أو تعاطـاه غـيره فيصر على الإنكـار ولا يبـالي بالعقوبـات فرحا بما يعتقـده كمـالا وشجاعة ورجولية فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره بل لا حالة أخس وأقبح من حـــال المخنث في تشـــبهه بالإنـــاث في نتف الشـــعر ووشم الوجه ومخالطة النسـاء فـترى المخنث في فـرح بحاله وافتخـار بكماله في تخنثه يتبـاهى به مع المخنثين حتى يجري بين الحجامين والكناسـين التفـاخر والمباهـاة كما يجـري بين الملـوك والعلمـــاء فكل ذلك نتيجة العـــادة والمواظبة على نمط واحد على الـــدوام مـــدة مديـــدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف فـإذا كـانت النفس بالعـادة تسـتلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مـدة والـتزمت المواظبة عليه بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خـارج عن الطبع يضـاهي الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه وإنما غـذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المـرض بالمعـدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال إلى حب شيء سـوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله إلا إذا كان أحب ذلك الشـيء لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يـدل ذلك على المـرض فـإذن قد عـرفت بهـذا قطعا أن هـذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسـابها بالرياضة وهي تكلف الأفعـال الصـادرة عنها ابتـداء لتصير طبعا انتهاء وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعـني النفس والبـدن فـإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة وكل فعل يجــري على الجــوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب والأمر فيه دور ويعــرف ذلك بمثال وهو أن من أراد أن يصـير الحـذق في الكتابة له صـفة نفسـية حـتى يصـير كاتبا بالطبع فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكـاتب الحـاذق ويـواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكـاتب تكلفا ثم لا يزال يـواظب عليه حـتى يصـير صـفة راسـخة في نفسه فيصـدر منه في الآخر الخط الحسن طبعا كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفا فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حســــــــنا ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صــفة الفقه فيصير فقيه النفس وكذلك من أراد أن يصـير سـخيا عفيف النفس حليما متواضـعا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفا حتى يصـير ذلك طبعا له فلا علاج له إلا ذلك وكما أن طـالب فقه النفس لا ييـأس من نيل هـذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكـرار ليلة فكـذلك طـالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم وهو معـنى قولنا إن الكبـيرة الواحـدة لا تـوجب الشـقاء المؤبد ولكن العطلة في يـوم واحد تـدعو إلى مثلها ثم تتـداعى قليلا قليلا حـتى تـأنس النفس بالكسل وتهجر التحصـيل رأسا فيفوتها فضيلة الفقه وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حـتى يفـوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس

بل يظهر فقه النفس شـيئا فشـيئا على التـدريج مثل نمو البـدن وارتفـاع القامة فكـذلك الطاعة الواحـدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحـال ولكن لا ينبغي أن يسـتهان بقليل الطاعة فـإن الجملة الكثـيرة منها مـؤثرة وإنما اجتمعت الجملة من الآحـاد فلكل واحد منها تأثير فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي فله ثـواب لا محالة فـإن الثـواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية وكم من فقيه يسـتهين بتعطيل يـوم وليلة وهكـذا على التـوالي يسـوف نفسه يوما فيوما إلى أن يخـرج طبعه عن قبـول الفقه فكـذا من يسـتهين صـغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة أو تـتراكم ظلمة الـذنوب على قلبه وتتعـذر عليه التوبة إذ القليل يـدعو إلى الكثـير فيصـير القلب مقيـدا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها وهو المعني بانسداد بـاب التوبة وهو المـراد بقوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا الآية ولذلك قال رضي الله تعالى عنه إن الإيمـان ليبـدو في القلب نكتة بيضـاء كلما ازداد الإيمـان ازداد ذلك البيـاض فـإذا استكمل العبد الإيمان ابيض القلب كله وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سـوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السـواد فـإذا اسـتكمل النفـاق أسـود القلب كله فـإذا عـرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكـون باعتيـاد الأفعـال الجميلة وتـارة بمشـاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرنـاء الخـير وإخـوان الصـلاح إذ الطبع يسـرق من الطبع الشر والخير جميعا فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاثة حتى صار ذا فضـيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة ومن كـان رذلا بـالطبع واتفق له قرنـاء السـوء فتعلم منهم وتيسـرت له أسـباب الشر حـتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يـره وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

## بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عـرفت من قبل أن الاعتـدال في الأخلاق هو صـحة النفس والميل عن الاعتـدال سـقم ومرض فيها كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صـحة له والميل عن الاعتـدال مـرض فيه فلنتخذ البـدن مثـالا فنقـول مثـال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضـائل والأخلاق الجميلة إليها مثـال البـدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصـحة له وجلبها إليه وكما أن الغـالب على أصل المـزاج الاعتـدال وإنما تعـتري المعـدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتـدلا صـحيح الفطـرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسـانه أي بالاعتيـاد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغـذاء فكـذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمـال وإنما تكمل بالتربية وتهـذيب الأخلاق والتغذية بـالعلم وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضا فشـأنه جلب الصـحة إليه فكـذلك النفس منك إن كـانت زكية طـاهرة مهذبة فينبغي أن تسـعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صـفائها وإن كـانت عديمة الكمـال والصـفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة المرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حـرارة فبـالبرودة وإن كـانت من بـرودة فبـالحرارة فكـذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضـدها فيعـالج مـرض الجهل بـالتعلم ومـرض البخل بالتسخي ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشـره بـالكف عن المشـتهى تكلفا وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبـدان المريضة فكـذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمـداواة مـرض القلب بل أولى فـإن مـرض البـدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد وكما أن كل مـبرد لا يصـلح لعلة سـببها الحـرارة إلا إذا كـان على حد مخصـوص ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد فكذلك النقـائض الـتي تعـالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار وكما أن معيـار الـدواء مـأخوذ من معيـار العلة حـتى إن الطـبيب لا يعـالج ما لم

يعرف أن العلة من حرارة أو برودة فإن كـانت من حـرارة فيعـرف درجتها أهي ضـعيفة أم قوية فـإذا عـرف ذلك التفت إلى أحـوال البـدن وأحـوال الزمـان وصـناعة المـريض وسـنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطبب نفوس المريدين ويعـالج قلوب المسترشـدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكـاليف في فن مخصـوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم وكما أن الطبيب لو عـالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكـثرهم فكـذلك الشـيخ لو أشـار على المريـدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلـوبهم بل ينبغي أن ينظر في مـرض المريد وفي حاله وسـنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبـني على ذلك رياضـته فـإن كـان المريد مبتـدئا جـاهلا بحـدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظـواهر العبـادات وإن كـان مشـغولا بمـال حـرام أو مقارفا لمعصــية فيــأمره أولا بتركها فــإذا تــزين ظــاهره بالعبــادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحـوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمـراض قلبه فـإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخـذه منه وصـرفه إلى الخـيرات وفـرغ قلبه منه حـتى لا يلتفت إليه وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والســؤال فــإن عــزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالــذل ولا ذل أعظم من ذل السـؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مـدة حـتى ينكسر كـبره وعز نفسه فـإن الكـبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة وإن رأى الغـالب عليه النظافة في البـدن والثيـاب ورأى قلبه مــائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتا إليه اســتخدمه في تعهد بيت المــاء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حـتى تتشـوش عليه رعونته في النظافة فإن الـذين ينظفـون ثيـابهم ويزينونها ويطلبـون المرقعـات النظيفة والسـجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيئا سوى كونه حلالا وطاهرا مراعـاة يلتفت إليها قلبه فهو مشـغول بنفسه ومن لطـائف الرياضة إذا كـان المريد لا يخسو بـترك الرعونة رأسا أو بـترك صـفة أخـرى ولم يسـمح بضـدها دفعه فينبغي أن ينقله من الخلق المـذموم إلى خلق مـذموم آخر أخف منه كالـذي يغسل الـدم بالبول ثم يغسل البول بالمـاء إذا كـان المـاء لا يزيل الـدم كما يـرغب الصـبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثيـاب ثم ينقل من ذلك بــالترغيب في الرياسة وطلب الجــاه ثم ينقل من الجــاه بــالترغيب في الآخــرة فكـذلك من لم تسـمح نفسه بـترك الجـاه دفعة فلينقل إلى جـاه أخف منه وكـذلك سـائر الصفات وكذلك إذا رأى شره الطعام غالبا عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعــام ثم يكلفه أن يهيءالأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حـتى يقـوى بـذلك نفسه فيتعـود الصـبر وينكسر شـرهه وكـذلك إذا رآه شـابا متشـوقا إلى النكـاح وهو عـاجز عن الطـول فيأمره بالصوم وربما لا تسكن شهوته بـذلك فيـأمره أن يفطر ليلة على المـاء دون الخـبز وليلة على الخبز دون الماء ويمنعه اللحم والأدم رأسا حتى تـذل نفسه وتنكسر شـهوته فلا علاج في مبـدأ الإرادة أنفع من الجـوع وإن رأى الغضب غالبا عليه ألزمه الحلم والسـكوت وسلط عليه من يصبحه ممن فيه سوء خلق ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه كما حكي عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شــدة الغضب فكان يسـتأجر من يشـتمه على ملأ من النـاس ويكلف نفسه الصـبر ويكظم غيظه حتى صـار الحلم عـادة له بحيث كـان يضـرب به المثل وبعضـهم كـان يستشـعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يـركب البحر في الشـتاء عند اضطراب الأمـواج وعبـاد الهند يعـالجون الكسل عن العبـادة بالقيـام طـول الليل على نصبة واحدة وبعض الشـيوخ في ابتـداء إرادته كـان يكسل عن القيـام فـألزم نفسه القيـام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع وعالج بعضهم حب المال بــأن بـاع جميع ماله ورمى به في البحر إذ خـاف من تفرقته على النـاس رعونة الجـود والريـاء بالبذل فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب وليس غرضـنا ذكر دواء كل مـرض فـإن ذلك ســيأتي في بقية الكتب وإنما غرضــنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه ســلوك مســلك المضــاد لكل ما تهــواه النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز

في كملة واحدة فقال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا فينبغي أن يصبر ويستمر فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية.

## بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواهاوالاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة وخاصة النفس التي للآدمي ما يتميز بها عن البهائم فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئا وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم إلى قوله أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه فلهذا صار الداء عضالا والمرض مزمنا واندرس هذا العلم وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات فهذه علامات أصول الأمراض وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه ولكنه قد يبذل المال إلى حد يصير به مبذرا فيكون التبذير أيضا داء فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضا داء بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين إن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ولا يترجح عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة ويجب أن يكون سليما عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها فعند ذلك ترجع إلى ربها

رجـوع النفس المطمئنة راضـية مرضـية داخلة في زمـرة عبـاد الله المقـربين من النبـيين والصـــديقين والشـــهداء والصـــالحين وحسن أولئك رفيقا ولما كـــان الوسط الحقيقي بين الطــرفين في غاية الغمــوض بل هو أدق من الشــعر وأحد من الســيف فلا جــرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المسـتقيم أعـني الوسط حـتى لا يميل إلى أحد الجـانبين فيكون قلبه معلقا بالجانب الذي مال إليه ولـذلك لا ينفك عن عـذاب ما واجتيـاز على النـار وإن كـان مثل الـبرق قـال الله تعـالى وإن منكم إلا واردها كـان على ربك حتما مقضـيا ثم ننجي الذين اتقوا أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكـثر من بعـدهم عنه ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشـرة مـرة في قوله اهدنا الصـراط المسـتقيم إذ وجب قـراءة الفاتحة في كل ركعة فقد روى أن بعضـهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال قد قلت يا رسول الله شيبتني هـود فلم قلت ذلك فقال عليه السلام لقوله تعالى فاسـتقم كما أمـرت فالاسـتقامة على سـواء السبيل في غاية الغموض ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القـرب من الاسـتقامة إن لم يقدر على حقيقتها فكل من أراد النجـاة فلا نجـاة له إلا بالعمل الصـالح ولا تصـدر الأعمـال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صـفاته وأخلاقه وليعـددها وليشـتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين.

## بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فمن كـانت بصـيرته نافـذة لم تخف عليه عيوبه فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه فمن أراد أن يعرف عيـوب نفسه فله أربعة طرق الأول أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته وهذا شـأن المريد مع شـيخه والتلميذ مع أسـتاذه فيعرفه أسـتاذه وشـيخه عيـوب نفسه ويعرفه طريق علاجه وهـذا قد عز في الزمـان وجـوده الثـاني أن يطلب صـديقا صـدوقا بصـيرا متـدينا فينصـبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كـــره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظـــاهرة ينبهه عليه فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين كـان عمر رضي الله عنه يقـول رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له ما الـــذي بلغك عني مما تكرهه فاستعفى فألح عليه فقـال بلغـني أنك جمعت بين إدامين على مائـدة وأن لك حلـتين حلة بالنهـار وحلة بالليل قـال وهل بلغك غـير هـذا قـال لا فقـال أما هـذان فقد كفيتهما وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صـاحب سر رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في المنافقين فهل ترى علي شيئا من آثار النفاق فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكـــذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه فكل من كـان أوفر عقلا وأعلى منصـبا كـان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه إلا أن هـذا أيضا قد عز فقل في الأصـدقاء من يـترك المداهنة فيخـبر بـالعيب أو يـترك الحسد فلا يزيد على قـدر الـواجب فلا تخلو في أصـدقائك عن حسـود أو صاحب غـرض يـرى ما ليس بعيب عيبا أو عن مـداهن يخفى عنك بعض عيوبك ولهـذا كـان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له لم لا تخالط الناس فقال وماذا أصنع بأقوام يخفــون عني عيوبي فكانت شـهوة ذوي الـدين أن يتنبهـوا لعيـوبهم بتنبيه غـيرهم وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا ويكاد هذا أن يكون مفصــحا عن ضعف الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيـات وعقـارب لداغة فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشـتغلنا بإزالة العقـرب وإبعادها وقتلها وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوما فما دونه ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تـدوم بعد المـوت أبـدا وآلافا من السـنين ثم إنا لا نفـرح بمن ينبهنا عليها ولا نشـتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الـــذنوب وأصل كل ذلك ضــعف الإيمــان فنســأل الله عز وجل أن يلهمنا رشـــدنا ويبصـــرنا بعيوبنا

ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله الطريق الثالث أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساويا ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم الطريق الرابع أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب قيل لعيسى عليه السلام من أدبك قال ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته وهذا كله حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا في الدين فارغا من تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحا لهم فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده.

## بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشف لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر قال الله تعالى ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى وقال تعالى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى قيل نزع منها محبة الشهوات وقال صلى الله عليه وسلم المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه حديث المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه الحديث أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس حديث مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر أخرجه البيهقي في الزهد وقد تقدم في شرح عجائب القلب وقال صلى الله عليه وسلم المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل حديث المجاهد من جاهد نفسه أخرجه الترمذي في أثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد وقال صلى الله عليه وسلم كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله تعالى إذن تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضا إلا أن يغفر الله تعالى ويستر حديث كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله الحديث لم أجده في هذا السيرة وقال سفيان الثوري ما عالجت شيئا أشد على من نفسي مرة لي ومرة علي وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأني بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحين

وقال الحسن ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك وقـال يحـيى بن معـاذ الرازي جاهد نفسك بأسياف الرياضة والرياضة على أربع أوجه القوت من الطعام والغمض من المنـام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنـام فيتولد من قلة الطعـام مـوت الشهوات ومن قلة المنام صفو الإرادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمـال الأذى البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شـيء أشد من الحلم عند الجفـاء والصـبر على الأذى وإذا تحـركت من النفس إرادة الشـهوات والآثـام وهـاجت منها حلاوة فضـول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصــفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها فتصـير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجـول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفارة في الميدان وكالملك المتـنزه في البستان وقـال أيضا أعـداء الإنسـان ثلاثة دنيـاه وشـيطانه ونفسه فـاحترس من الـدنيا بالزهد فيها ومن الشيطان بمخالفته ومن النفس بـترك الشـهوات قـال بعض الحكمـاء من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها محصورا في سجن هواها مقهورا مغلولا زمامه في يـدها تجـره حيث شـاءت فتمنع قلبه من الفوائد وقـال جعفر بن حميد أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم وقال أبو يحيى الـوراق من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر النـدامات وقـال وهيب بن الـورد ما زاد على الخبز فهو شهوة وقال أيضا من أحب شهوات الـدنيا فليتهيأ للـذل ويـروى أن امـرأة العزيز قـالت ليوسف عليه السـلام بعد أن ملك خـزائن الأرض وقعـدت له على رابية الطريق في يـوم موكبه وكـان يـركب في زهـاء اثـنى عشر ألفا من عظمـاء مملكته سـبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له إن الحرص والشهوة صيرا الملـوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا فقـال يوسف كما أخـبر الله تعالى عنه إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وقـال الجنيد أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقـدر فجلست فلم أطق الجلـوس فخـرجت فـإذا رجل ملتف في عبـاءة مطـروح على الطريق فلما أحس بي قال يا أبا القاسم إلى الساعة فقلت يا سيدي من غير موعد قال بلى سـألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك فقلت قد فعل فما حاجتك قال فمتى يصير داء النفس دواءها فقلت إذا خالفت النفس هواها فأقبل على نفسه فقال اسمعي فقد أجبتك بهـذا سـبع مـرات فـأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيدها قد سـمعتيه ثم انصـرف وما عرفته وقـال يزيد الرقاشي إليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلي لا أحرمه في الآخرة وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى متى أتكلم قال إذا اشتهيت الصمت قـال مـتى أصـمت قـال إذا اشـتهيت الكلام وقال علي رضي الله عنه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشـتهيه قـال لنفسه اصـبري فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك علي فإذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سـعادة الآخـرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالإيمان بهذا واجب وأما علم تفصـيل ما يـترك من الشـهوات وما لا يـترك فلا يـدرك إلا بما قـدمناه وحاصل الرياضة وسـرها أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضـرورة فيكـون مقتصـرا من الأكل والنكـاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع إلى الـدنيا إلا من لا حظ له في الآخـرة بحـال ولا خلاص منه إلا بـأن يكـون القلب مشـغولا بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع إليه ولا قوة على ذلك إلا بالله ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الـذكر والفكر فقط فمن لم يقـدر على حقيقة ذلك فليقـرب منه والنـاس فيه أربعة رجل مسـتغرق قلبه بــذكر الله فلا يلتفت إلى الــدنيا إلا في ضــرورات المعيشة فهو من الصديقين ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديــدة الثـاني رجل اسـتغرقت الـدنيا قلبه ولم يبق لله تعـالى ذكر في قلبه إلا من حيث حـديث النفس حيث يـذكره باللسـان لا بـالقلب فهـذا من الهـالكين والثـالث رجل اشـتغل بالـدنيا والـدين ولكن الغـالب على قلبه هو الـدين فهـذا لا بد له من ورود النـار إلا أنه ينجو منها

ســريعا بقــدر غلبة ذكر الله تعــالى على قلبه والرابع رجل اشــتغل بهما جميعا لكن الــدنيا اغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقـوة ذكر الله تعـالى في قلبه وتمكنه من صـميم فـؤاده وإن كـان ذكر الـدنيا أغلب على قلبه اللهم إنا نعـوذ بك من خزيك فإنك أنت المعاذ وربما يقول القائل إن التنعم بالمبـاح مبـاح فكيف يكـون التنعم سـبب البعد من الله عز وجل وهـذا خيـال ضـعيف بل حب الـدنيا رأس كل خطيئة وسـبب إحباط كل حسنة والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضا من الدنيا وهو سـبب البعد وسـيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا وقد قال إبراهيم الخواص كنت مـرة في جبل اللكـام فـرأيت رمانا فاشـتهيته فأخـذت منه واحـدة فشـققتها فوجـدتها حامضة فمضـيت وتركتها فـرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنـابير فقلت السـلام عليك فقـال وعليك السـلام يا إبـراهيم فقلت كيف عرفتني فقال من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شيء فقلت أرى لك حـالا مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير فقال وأرى لك حـالا مع الله تعـالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ولدغ الزنـابير يجد ألمه في الـدنيا فتركته ومضـيت وقـال السـري أنا منذ أربعين سـنة تطـالبني نفسي أن أغمس خـبزه في دبس فما أطعتها فـإذن لا يمكن إصـلاح القلب لسـلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسـانه عن الغيبة والفضـول فحقه أن يلزمه السـكوت إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين حـتى تمـوت منه شـهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبـادة ومهما اعتـادت العين رمي البصر إلى كل شـيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى ما لا يحل وكذلك سائر الشهوات لأن الذي يشـتهي به الحلال هو بعينه الذي يشتهي الحرام فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحـرام فـإن لم يعودها الاقتصـاد على قـدر الضـرورة من الشـهوات غلبته فهـذه إحـدى آفـات المباحـات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه وهو أن النفس تفرح بـالتنعم في الـدنيا وتـركن إليها وتطمئن إليها أشرا وبطرا حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة وهذا هو موت القلب قال الله تعالى ورضوا بالحياة الـدنيا واطمـأنوا بها وقـال تعالى وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع وقال تعالى اعلموا أنما الحيـاة الـدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد الآية وكل ذلك ذم لها فنسـأل الله السـلامة فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر وجربوها في حالة الحـزن فوجـدوها لينة رقيقة صـافية قابلة لأثر الـذكر فعلمـوا أن النجـاة في الحـزن الـدائم والتباعد من أسـباب الفـرح والبطر ففطموها عن ملاذها وعودوها الصبر عن شهواتها حلالها وحرامها وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عـذب فخلصـوا أنفسـهم من عـذابها وتوصـلوا إلى الحرية والملك الـدائم في الـدنيا والآخـرة بـالخلاص من أسر الشـهوات ورقها والأنس بـذكر الله عز وجل والاشـتغال بطاعته وفعلــوا بها ما يفعل بالبــازي إذا قصد تأديبه ونقله من التــوثب والاســتيحاش إلى الانقياد والتأديب فإنه يحبس أولا في بيت مظلم وتخاط عينـاه حـتى يحصل به الفطـام عن الطيران في جو الهواء وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ثم يرفق بـاللحم حـتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفا إذا دعاه أجابه ومهما سمع صوته رجع إليه فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها بـالخلوة والعزلة أولا ليحفظ السـمع والبصر عن المألوفات ثم عـودت الثنـاء والـذكر والـدعاء ثانيا في الخلـوة حـتى يغلب عليها الإنس بـذكر الله عز وجل عوضا عن الإنس بالـدنيا وسـائر الشـهوات وذلك يثقل على المريد في البداية ثم يتنعم به في النهاية كالصبي يفطم عن الثـدي وهو شـديد عليه إذا كـان لا يصـبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام ويشـتد نفـوره عن الطعـام الـذي يقـدم إليه بــدلا عن اللبن ولكنه إذا منع اللبن رأسا يوما فيوما وعظم تعبه في الصـبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفا ثم يصير له طبعا فلورد بعد ذلك إلى الثــدي لم يرجع إليه فيهجر الثـدي ويعـاف اللبن ويـألف الطعـام وكـذلك الدابة في الابتـداء تنفر عن السـرج واللجـام

والركوب فتحمل على ذلك قهـرا وتمنع عن السـرج الـذي الفته بالسلاسل والقيـود أولا ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد فكـذلك تـؤدب النفس كما تـؤدب الطير والدواب وتأديبها بـأن تمنع من النظر والأنس والفـرح بنعيم الـدنيا بل بكل ما يزايلها بـالموت إذ قيل له أحبب ما أحببت فإنك مفارقه فـإذا علم أنه من أحب شـيئا يلزمه فراقة ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى فإن ذلك يصـحبه في القـبر ولا يفارقه وكل ذلك يتم بالصـبر أولا أياما قلائل فـإن العمر قليل بالإضـافة إلى مـدة حيـاة الآخـرة وما من عاقل إلا وهو راض باحتمـال المشـقة في سـفر وتعلم صـناعة وغيرها شهرا ليتنعم به سنة أو دهرا وكل العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا فلا بد من الصبر والمجاهدة فعند الصباح يحمد القوم السري وتـذهب عنهم عمايــات الكــرى كما قاله علي رضي الله عنه وطريق المجاهــدة والرياضة لكل إنســان تختلف بحسب اختلاف أحواله والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحة من أسباب الـدنيا فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بـالعز في القضـاء والولاية أو بكـثرة الأتباع في التدريس والإفـادة فينبغي أن يـترك أولا ما به فرحه فإنه إن منع عن شـيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فـرح بالحيـاة الدنيا واطمأن بها وذلك مهلك في حقه ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعـتزل النـاس ولينفـرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بـذكر الله تعـالى والفكر فيه وليترصد لما يبـدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر فإن لكل وسوسة سببا ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت.

## بيان علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى تـرك فـواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق فإن حسن الخلق هو الإيمـان وسـوء الخلق هو النفـاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمـنين والمنـافقين في كتابه وهي بجملتها ثمـرة حسن الخلق وسـوء الخلق فلنــورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق قــال الله تعــالى قد أفلح المؤمنــون الــذين هم في صــلاتهم خاشــعون والــذين هم عن اللغو معرضــون إلى قوله أولئك هم الوارثون وقال عز وجل التائبون العابـدون الحامـدون إلى قوله وبشر المؤمـنين وقـال عز وجل إنما المؤمنـون الـذين إذا ذكر الله وجلت قلـوبهم إلى قوله أولئك هم المؤمنـون حقا وقال تعالى وعباد الرحمن الـذين يمشـون على الأرض هونا وإذا خـاطبهم الجـاهلون قـالوا سلاما إلى آخر السورة من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجـود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضـها دون بعض يــدل على البعض دون البعض فليشــتغل بتحصــيل ما فقــده وحفظ ما وجــده وقد وصف رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم المـؤمن بصـفات كثـيرة وأشـار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقــال المــؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه حــديث المــؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه أخرجه الشيخان من حـديث أنس لا يـؤمن أحـدكم حـتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وقال عليه السلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكـرم ضـيفه حـديث من كـان يـؤمن بالله والله الآخر فليكرم ضيفه متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حـديث أبي هريرة وقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليـوم الآخر فليكـرم جـاره حـديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره متفق عليه من حـديثهما وهو بعض الحـديث الذي قبله وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خـيرا أو ليصـمت حـديث من كـان يـؤمن بالله واليـوم الآخر فليقل خـيرا أو ليصـمت متفق عليه أيضا من حـديثهما وهو بعض الذي قبله وذكر أن صفات المؤمـنين هي حسن الخلق فقـال صـلى الله عليه وسـلم أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا حديث أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا تقـدم غـير مـرة وقال صلى الله عليه وسلم إذا رأيتم المـؤمن صـموتا وقـورا فـادنوا منه فإنه يلقن الحكمة حديث إذا رأيتم المؤمن صـموتا وقـورا فـادنوا منه فإنه يلقن الحكمة أخرجه ابن ماجه من حــديث أبي خلاد بلفظ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهــدا في الــدنيا وقلة منطق وقــال من

سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن حديث من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مـؤمن أخرجه أحمد والطـبراني والحـاكم وصـححه على شـرطهما من حـديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة وقال لا يحل لمؤمن أن يشـير إلى أخيه بنظـرة تؤذيه حـديث لا يحل لمسـلم أن يشـير إلى أخيه بنظـرة يؤذيه أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسلا وقد تقدم وقال صلى الله عليه وسلم لا يحل لمسلم أن يروع مسلما حديث لا يحل لمسـلم أن يـروع مسـلما أخرجه الطبراني والطيالسي من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث عمر وإسناده ضـعيف وقال صلى الله عليه وسلم إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه حديث إنما يتجـالس المتجالسـان بأمانة الله الحـديث تقـدم في آداب الصحبة وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال هو أن يكون كثـير الحيـاء قليل الأذى كثير الصلاح صـدوق اللسـان قليل الكلام كثـير العمل قليل الزلل قليل الفضـول بـرا وصولا وقورا صبورا شـكورا رضـيا حليما رفيقا عفيفا شـفيقا لا لعانا ولا سـبابا ولا نماما ولا مغتابا ولا عجـولا ولا حقـودا ولا بخيلا ولا حسـودا بشاشا هشاشا يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق وسـئل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عن علامة المـؤمن والمنـافق فقـال إن المـؤمن همته في الصـلاة والصـيام والعبادة والمنـافق همته في الطعـام والشـراب كالبهيمة حـديث سـئل عن علامة المـؤمن والمنافق فقال إن المؤمن همه في الصلاة والصـيام الحـديث لم أجد له أصلا وقـال حـاتم الأصم المؤمن مشغول بالفكر والعـبر والمنـافق مشـغول بـالحرص والأمل والمـؤمن آيس من كل أحد إلا من الله والمنـــافق راج كل أحد إلا الله والمـــؤمن آمن من كل أحد إلا من الله والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله والمؤمن يقدم ماله دون دينه والمنـافق يقـدم دينه دون ماله والمـؤمن يحسن ويبكي والمنـافق يسـيء ويضـحك والمـؤمن يحب الخلـوة والوحـدة والمنـافق يحب الخلطة والملأ والمـؤمن يـزرع ويخشى الفسـاد والمنـافق يقلع ويرجو الحصاد والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصـبر على الأذى واحتمـال الجفـاء ومن شـكا من سـوء خلق غيره دل ذلك على سـوء خلقه فـإن حسن الخلق احتمـال الأذى فقد روي أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جـذبا شـديدا وكـان عليه بـرد نجـراني غليظ الحاشـية قـال أنس رضي الله عنه حـتى نظـرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه فقـال يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر بإعطائه حديث كان يمشي فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه بـرد نجـراني غليظ الحاشية الحديث متفق عليه من حديث أنس ولما أكثرت قريش إيذاءه وضـربه قـال اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حديث اللهم اغفر لقومي فـإنهم لا يعلمـون أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل ابن سعد وفي الصـحيحين من حـديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبيـاء ضـربه قومه قيل إن هـذا يـوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى وإنك لعلى خلق عظيم ويحكى أن إبـراهيم بن أدهم خـرج يوما إلى بعض الـبراري فاسـتقبله رجل جنـدي فقـال أنت عبد قـال نعم فقـال له أين العمـران فأشار إلى المقبرة فقال الجندي إنما أردت العمران فقال هو المقبرة فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخـبر فـأخبرهم الجنـدي ما قال له فقالوا هذا إبـراهيم بن أدهم فـنزل الجنـدي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه فقيل بعد ذلك له لم قلت له أنا عبد فقـال إنه لم يسـألني عبد من أنت بل قـال أنت عبد فقلت نعم لأني عبد الله فلما ضـــرب رأسي ســـألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك فقال علمت أنني أوجر على ما نالني منه فلم أرد يكون نصـيبي منه الخـير ونصـيبه مني الشر ودعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة وكان الداعي قد أراد تجربته فلما بلغ منزله قال له ليس لي وجه فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمــان فقــال له مثل مقالته الأولى فرجع ثم دعــاه الثالثة وقــال ارجع على ما يوجب الـوقت فرجع فلما بلغ البـاب فـان له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمـان ثم جـاءه

الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك فأكب على رجليه وقــال يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك فقال إن الـذي رأيت مـني هو خلق الكلب إن الكلب إذا دعي أجاب وإذا زجر انزجر وروي عنه أيضا أنه اجتاز يوما في سكة فطرحت عليه إجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشـكر ثم جعل ينفض الرمـاد عن ثيابه ولم يقل شيئا فقيل ألا زبـرتهم فقـال إن من اسـتحق النـار فصـولح على الرمـاد لم يجز له أن يغضب وروي أن علي بن موسى الرضا رحمة الله عليه كـــان لونه يميل إلى الســـواد إذ كانت أمه سوداء وكان بنيسابور حمام على باب داره وكان إذا أراد دخول الحمـام فرغه له الحمامي فـدخل ذات يـوم فـأغلق الحمـامي البـاب ومضى في بعض حوائجه فتقـدم رجل رسـتاقي إلى بـاب الحمــام ففتحه ودخل فــنزع ثيابه ودخل فــرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمـام فقـال له قم واحمل إلي المـاء فقـام علي بن موسى وامتثل جميع ما كـان يـأمره به فرجع الحمـامي فـرأى ثيـاب الرسـتاقي وسـمع كلامه مع علي بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما فلما خـرج علي بن موسى سـأل عن الحمـامي فقيل له إنه خاف مما جرى فهرب قال لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع مـاءه عند أمة ســوداء وروي أن أبا عبد الله الخيــاط كـــان يجلس على دكانه وكــان له حريف مجوسي يسـتعمله في الخياطة فكـان إذا خـاط له شـيئا حمل إليه دراهم زائفة فكـان أبو عبد الله يأخذ منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه فاتفق يوما أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته فـأتى المجوسي فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زئفا فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه فلما عاد أبو عبد الله أخـبره بـذلك فقـال بئس ما عملت هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها في البــئر لئلا يغر بها مســلما وقــال يوسف بن أســباط علامة حسن الخلق عشر خصال قلة الخلاف وحسن الإنصاف وتـرك طلب العـثرات وتحسـين ما يبـدو من السـيئات والتمـاس المعـذرة واحتمـال الأذى والرجـوع بالملامة على النفس والتفـرد بمعرفة عيـوب نفسه دون عيوب غيره وطلاقة الوجه للصغير والكبـير ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه وسئل سهل عن حسن الخلق فقال أدنـاه احتمـال الأذى وتـرك المكافـأة والرحمة للظـالم والاستغفار له والشفقة عليه وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم قيل ما وبلغ من حلمه قــال بينما هو جــالس في داره إذ أتته جارية له بسـفود عليه شواء فسـقط من يـدها فوقع على ابن له صـغير فمـات فدهشت الجارية فقـال لها لا روع عليك أنت حــرة لوجه الله تعــالى فقيل إن أويسا القــرني كــان إذا رآه الصــبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصـغار حـتى لا تـدموا سـاقي فتمنعوني عن الصلاة وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قــرب من الحي وقف وقال إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سـفهاء الحي فيؤذوك وروي أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقـام إليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال بلى قال فما حملك على ترك إجابتي قــال أمنت عقوبتك فتكاسـلت فقـال امض فـأنت حر لوجه الله تعـالي وقـالت امـرأة لمالك بن دينار رحمه الله يا مرائي فقال يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة وكـان ليحـيى بن زياد الحارثي غلام سـوء فقيل له لم تمسـكه فقـال لأتعلم الحلم عليه فهـذه نفـوس قد ذللت بالرياضة فاعتــدلت أخلاقها ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فــأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق فإن من يكره فعل الله تعــالى ولا يرضى به فهو غاية ســوء خلقه فهــؤلاء ظهــرت العلامــات على ظــواهرهم كما ذكرنــاه فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغي أن يشــتغل بالرياضة والمجاهــدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون.

## بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق في رياضة الصـبيان من أهم الأمـور وأوكـدها والصـبيان أمانة عند والديه وقلبه الطـاهر جـوهرة نفيسة سـاذجة خالية عن كل نقش وصـورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه فإن عود الخـير وعلمه نشأ عليه وسـعد في الـدنيا والآخـرة وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب وإن عـود الشر وأهمل إهمـال البهـائم شـقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له وقد قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخـرة أولى وصـيانته بـأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرنـاء السـوء ولا يعـوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضـيع عمـره في طلبها إذا كـبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضـاعه إلا امـرأة متدينة تأكل الحلال فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع عليه نشو الصـبي انعجنت طينته من الخـبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبـائث ومهما رأى فيه مخايل التميـيز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهـور أوائل الحيـاء فإنه إذا كـان يحتشم ويسـتحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حـتى يـرى بعض الأشـياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تـدل على اعتـدال الأخلاق وصـفاء القلب وهو مبشر بكمـال العقل عند البلـوغ فالصـبي المسـتحي لا ينبغي أن يهمل بل يسـتعان على تأديبه بحيائه أو تميـيزه وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه وأن يقول عليه بسم الله عند أخـذه وأن يأكل مما يليه وأن لا يبـادر إلى الطعـام قبل غـيره وأن لا يحـدق النظر إليه ولا إلى من يأكل وأن لا يسـرع في الأكل وأن يجيد المضغ وأن لا يـوالي بين اللقم ولا يلطخ يده ولا ثوبه وأن يعـود الخـبز القفـار في بعض الأوقـات حـتى لا يصـير بحيث يرى الأدم حتما ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشـبه كل من يكـثر الأكل بالبهـائم وبـأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتـأدب القليل الأكل وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النسـاء والمخنـثين وأن الرجـال يسـتنكفون منه ويكـرر ذلك عليه ومهما رأى على صبي ثوبا من إبريسم أو ملـون فينبغي أن يسـتنكره ويذمه ويحفظ الصـبي عن الصـبيان الـذين عـودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسـمعه ما يرغبه فيه فـإن الصـبي مهما أهمل في ابتداء نشوه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فصول وضـحك وكيـاد ومجانة وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التـأديب ثم يشـتغل في المكتب فيتعلم القـرآن وأحـاديث الأخبـار وحكايـات الأبـرار وأحـوالهم لينغـرس في نفسه حب الصـالحين ويحفظ من الأشـعار الـتي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدبـاء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع فإن ذلك يغـرس في قلـوب الصـبيان بـذر الفساد ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمـود فينبغي أن يكـرم عليه ويجـازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس فـإن خـالف ذلك في بعض الأحـوال مـرة واحـدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسـروا أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصـبي واجتهد في إخفائه فـإن إظهـار ذلك عليه ربما يفيـده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سـرا ويعظم الأمر فيه ويقال له إيـاك أن تعـود بعد ذلك لمثل هـذا وأن يطلع عليك في مثل هـذا فتفتضح بين الناس ولا تكـثر القـول عليه بالعتـاب في كل حين فإنه يهـون عليه سـماع الملامة وركـوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح وينبغي أن يمنع عن النـوم نهـارا فإنه يـورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصـبر عن التنعم بل يعـود الخشـونة في المفـرش والملبس والمطعم وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فإذا ترك تعـود فعل القـبيح ويعـود في بعض النهـار المشي والحركة والرياضة حـتى لا يغلب عليه الكسل ويعـود أن لا يكشف أطرافه ولا يسـرع المشي ولا يـرخي يديه بل يضـمها إلى صـدره ويمنع من أن يفتخر على

أقرانه بشـيء مما يملكه والـداه أو بشـيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته بل يعـود التواضع والإكـــرام لكل من عاشـــره والتلطف في الكلام معهم ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشـمين بل يعلم أن الرفعة في الإعطـاء لا في الأخذ وأن الأخذ لـؤم وخسة ودنـاءة وإن كـان من أولاد الفقـراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصـــبص في انتظـــار لقمة والطمع فيها وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحـذر من الحيات والعقـارب فـإن آفة حب الـذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السـموم على الصبيان بل على الأكـابر أيضا وينبغي أن يعـود أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يسـتدبر غـيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلـوس ويمنع كـثرة الكلام ويـبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئـام ويمنع اليمين رأسا صـادقا كـان أو كاذبا حتى لا يعتـاد ذلك في الصـغر ويمنع أن يبتـديء بـالكلام ويعـود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقـدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سـنا وأن يقـوم لمن فوقه ويوسع له المكـان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السـوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصـراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويـذكر له أن ذلك دأب الشـجعان والرجـال وأن كـثرة الصراخ دأب المماليك والنسـوان وينبغي أن يـؤذن له بعد الانصـراف من الكتـاب أن يلعب لعبا جميلا يسـتريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب فـإن منع الصــبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكـاءه وينغص عليه العيش حـتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكـــبر منه سـنا من قـريب وأجنـبي وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يـترك اللعب بين أيـديهم ومهما بلغ سن التميـيز فينبغي أن لا يسـامح في تـرك الطهـارة والصـلاة ويـؤمر بالصوم في بعض أيام رمضـان ويجنب لبس الـديباج والحرير والـذهب ويعلم كل ما يحتـاج إليه من حـدود الشـرع ويخـوف من السـرقة وأكل الحـرام ومن الخيانة والكـذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان فإذا وقع نشوه كذلك في الصـبا فمهما قـارب البلـوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل وأن الـــدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقـــاء لها وإن المـــوت يقطع نعيمها وأنها دار ممر لا دار مقر وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر وأن المـوت منتظر في كل سـاعة وأن الكيس العاقل من تـزود من الـدنيا للآخـرة حـتى تعظم درجته عند الله تعـالى ويتسع نعيمه في الجنان فـإذا كـان النشو صـالحا كـان هـذا الكلام عند البلـوغ واقعا مـؤثرا ناجعا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر وإن وقع النشو بخلاف ذلك حـــــتى ألف الصـبي اللعب والفحش والوقاحة وشـره الطعـام واللبـاس والـتزين والتفـاخر نبا قبله عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس فأوائل الأمور هي الـتي ينبغي أن تـراعى فـإن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبـواه يميلان به إلى أحد الجـانبين قـال صـلى الله عليه وسـلم كل مولـود يولد على الفطـرة وإنما أبـواه يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسانه حديث كل مولـود يولد على الفطـرة الحـديث متفق عليه من حـديث أبي هريـرة قال سـهل بن عبد الله التسـتري كنت وأنا ابن ثلاث سـنين أقـوم بالليل فـأنظر إلى صـلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوما ألا تـذكر الله الـذي خلقك فقلت كيف أذكـره قـال قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غـير أن تحـرك به لسـانك الله معي الله نـاظر إلي الله شـاهدي فقلت ذلك ليـالي ثم أعلمته فقـال قل في كل ليلة سـبعة مـرات فقلت ذلك ثم أعلمته فقال قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مـرة فقلته فوقع في قلـبي حلاوته فلما كان بعد سنة قال لي خالي احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القـبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لـذلك حلاوة في سـري ثم قـال لي خـالي يوما يا سهل من كـان الله معه ونـاظرا إليه وشـاهده أيعصـيه إيـاك والمعصـية فكنت أخلو بنفسي فبعثـــوا بي إلى المكتب فقلت إني لأخشى أن يتفـــرق علي همي ولكن شـــارطوا

المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع فمضيت إلى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشـرة سـنة فـوقعت لي مسـألة وأنا ابن ثلاث عشـرة سـنة فسـألت أهلي أن يبعثـوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئا فخـرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسـألته عنها فأجـابني فأقمت عنده مدة انتفع بكلامه وأتـأدب بآدابه ثم رجعت إلى تسـتر فجعلت قـوتي اقتصـادا على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخـبز لي فـأفطر عند السـحر على أوقية كل ليلة بحتا من غير ملح ولا أدم فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة ثم عـزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ثم خمسا ثم سبعا ثم خمسا وعشـرين ليلة فكنت على ذلك عشرين سنة ثم خرجت أسيح في الأرض سنين ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى.

## بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شـاهد الآخـرة بقلبه مشـاهدة يقين أصـبح بالضـرورة مريـدا حـرث الآخـرة مشتاقا إليها سالكا سبلها مستهينا بنعيم الـدنيا ولـذاتها فـإن من كـانت عنـده خـرزة فـرأى جـوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخـرزة وقـويت إرادته في بيعها بـالجوهرة ومن ليس مريدا حرث الآخـرة ولا طالبا للقـاء الله تعـالى فهو لعـدم إيمانه بالله واليـوم الآخر ولست أعني بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غـير صـدق وإخلاص فـإن ذلك يضاهي قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخـرزة إلا أنه لا يـدري من الجـوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا ومثل هذا المصدق إذا ألف الخـرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشـتياقه إلى الجوهرة فإذن المـانع من الوصـول عـدم السـلوك والمـانع من السـلوك عـدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمـذكرين والعلمـاء بالله تعـالى الهـادين إلى طريقه والمنبهين على حقـارة الـدنيا وانقراضـها وعظم أمر الآخـرة ودوامها فالخلق غافلون قد انهمكـوا في شـهواتهم وغاصـوا في رقـدتهم وليس في علمـاء الدين من ينبههم فـإن تنبه منهم متنبه عجز عن سـلوك الطريق لجهله فـإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلق طريق الله تعالى عن السالكين فيه ومهما كـان المطلوب محجوبا والـدليل مفقـودا والهـوى غالبا والطـالب غـافلا امتنع الوصـول وتعطلت الطــرق لا محالة فــإن تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غـيره وانبعث له إرادة في حــرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم له شـروطا لا بد من تقـديمها في بداية الإرادة وله معتصم لا بد من التمسك به وله حصن لا بد من التحصن به ليــأمن من الأعــداء القطــاع لطريقه وعليه وظــائف لا بد من ملازمتها في وقت ســلوك الطريق أما الشــروط الــتي لا بد من تقديمها في الإرادة فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق فـإن حرمـان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى وجعلنا من بين أيديهم ســدا ومن خلفهم ســدا فأغشــيناهم فهم لا يبصــرون والسد بين المريد وبين الحق أربعة المال والجاه والتقليد والمعصية وإنما يرفع حجـاب المـال بخروجه عن ملكه حـتى لا يبقى له إلا قـدر الضـرورة فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجـوب عن الله عز وجل وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول والهـرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلـوب الخلق عنه وإنما يرتفع حجـاب التقليد بـأن يـترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعـنى قوله لا إله إلا الله محمد رسـول الله تصـديق إيمـان ويحرض في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى وأعظم معبود له الهوى حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليـدا فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة فإن غلب عليه التعصب لمعتقـده ولم يبق في نفسه متسع لغـيره صـار ذلك قيـدا له وحجابا إذ ليس من شـرط المريد الانتمـاء إلى مـذهب معين أصلا وأما المعصـية فهي حجـاب ولا يرفعها إلا التوبة والخـروج من المظـالم

وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضي ورد المظالم وإرضاء الخصـوم فـإن من لم يصـحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظـاهرة وأراد أن يقف على أسـرار الـدين بالمكاشـفة كـان كمن يريد أن يقف على أسـرار القـرآن وتفسـيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب فإن ترجمة عربية القـرآن لا بد من تقـديمها أولا ثم الـترقي منها إلى أسـرار معانيه فكذلك لا بد من تصحيح الشريعة أولا وآخـرا ثم الـترقي إلى أغوارها وأسـرارها فـإذا قـدم هذه الشروط الأربعة وتجرد عن المال والجاه كـان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحـدث وصـار صالحا للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فإن سبيل الـدين غـامض وسـبل الشـيطان كثـيرة ظـاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قـاده الشـيطان إلى طرقه لا محالة فمن سـلك سـبل البـوادي المهلكة بغير خفير قد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون المستقل بنفسه كالشـجرة الـتي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر فمعتصم المريد بعد تقديم الشـروط المـذكورة شـيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شـاطيءالنهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ولا يخالفه في ورده ولا صـدره ولا يبقى في متابعته شـيئا ولا يـذر وليعلم أن نفعه في خطأ شـيخه لو أخطأ أكـثر من نفعه في صـواب نفسه لو أصـاب فـإذا وجد مثل هـذا المعتصم وجب على معتصـمه أن يحميه ويعصـمه بحصن حصـين يـدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور الخلوة والصمت والجوع والسهر وهـذا تحصن من القواطع فـإن مقصـود المريد إصـلاح قلبه ليشـاهد به ربه ويصـلح لقربه أما الجـوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفي بياضه نـــوره ويـــذيب شـــحم الفـــؤاد وفي ذوبانه رقته ورقته مفتـــاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب ومهما نقص دم القلب ضـاق مسـلك العـدو فـإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات وقـال عيسى عليه السـلام يا معشر الحـواريين جوعـوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التستري ما صـار الأبـدال أبـدالا إلا بأربع خصال بإخماص البطون والسهر والصـمت والاعـتزال عن النـاس ففائـدة الجـوع في تنـوير القلب أمر ظـاهر يشـهد له التجربة وسـيأتي بيـان وجه التـدريج فيه في كتـاب كسر الشـهوتين وأما السـهر فإنه يجلو القلب ويصـفيه وينـوره فيضـاف ذلك إلى الصـفاء الـذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدري والمـرآة المجلـوة فيلـوح فيه جمـال الحق ويشاهد فيه رفيع الـدرجات في الآخـرة وحقـارة الـدنيا وآفاتها فتتم بـذلك رغبته عن الـدنيا وإقباله على الآخرة والسـهر أيضا نتيجة الجـوع فـإن السـهر مع الشـبع غـير ممكن والنـوم يقسي القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشـفة لأسـرار الغيب فقد قيل في صفة الأبدال إن أكلهم فاقه ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة وقال إبـراهيم الخـواص رحمه الله أجمع رأي سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء وأما الصمت فإنه تسهله العزلة ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره فينبغي أن لا يتكلم إلا بقـدر الضـرورة فـإن الكلام يشـغل القلب وشـره القلـوب إلى الكلام عظيم فإنه يستروح إليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى وأما حياة الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضـبط السـمع والبصر فإنهما دهليز القلب والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قـذرة من أنهـار الحـواس ومقصـود الرياضة تفريغ الحـوض من تلك الميـاه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه المـاء النظيف الطـاهر وكيف يصح له أن يـنزح المـاء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قـــدر الضـــرورة وليس يتم ذلك إلا بـــالخلوة في بيت مظلم وإن لم يكن له مكـــان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له يا أيها المزمل يا أيها المدثر حـديث بـدئ رسـول الله صـلى الله عليه وسلم وهو مدثر فقيل له يا أيها المزمل يا أيها المدثر متفق عليه من حديث جابر جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني الحـديث وفيه فـأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي الماء باردا فدثروني وصبوا علي ماء باردا قال فـنزلت يا أيها المـدثر وفي رواية فقلت زملـوني زملـوني ولهما من حـديث عائشة فقـال زملـوني

زملـوني فزملـوه حـتى ذهب عنه الـروع فهـذه الأربعة جنة وحصن بها تـدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق وإنما سـلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب الـتي سـببها الالتفـات إلى الـــدنيا وبعض تلك العقبـــات أعظم من بعض والـــترتيب في قطعها أن يشـــتغل بالأســـهل فالأسهل وهي تلك الصفات أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الإرادة وآثارها أعـني المـال والجـاه وحب الـدنيا والالتفـات إلى الخلق والتشـوف إلى المعاصي فلا بد أن يخلى الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسـبابها الظـاهرة وفيه تطـول المجاهـدة ويختلف ذلك باختلاف الأحوال فرب شـخص قد كفى أكـثر الصـفات فلا تطـول عليه المجاهـدة وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صـفة غالبة على نفس المريد كما سبق ذكره فإذا كفى ذلك أو ضـعف بالمجاهـدة ولم يبق في قلبه علاقة شـغله بعد ذلك بـذكر يلـزم قلبه على الـدوام ويمنعه من تكثـير الأوراد الظـاهرة بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحدا وهو لبـاب الأوراد وثمرتها أعـني ملازمة القلب لـذكر الله تعـالى بعد الخلو من ذكر غـيره ولا يشـغله به مـادام قلبه ملتفتا إلى علائقهقـال الشبلي للحصـري إن كـان يخطر بقلبك من الجمعة الـتي تـأتيني فيها إلى الجمعة الأخـرى شيء غير الله تعـالى فحـرام عليك أن تـأتيني وهـذا التجـرد لا يحصل إلا مع صـدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلا هم واحد فإذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسـير من القوت الحلال فإن أصل طريق الدين القـوت الحلال وعند ذلك يلقنه ذكـرا من الأذكـار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا الله الله أو سـبحان الله سـبحان الله أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسـقط حركة اللسـان وتكـون الكلمة كأنها جارية على اللسـان من غـير تحريك ثم لا يـزال يـواظب عليه حـتى يسـقط الأثر عن اللسـان وتبقي صـورة اللفظ في القلب ثم لا يـزال كـذلك حـتى يمحى عن القلب حـروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معنـاه لازمة للقلب حاضـرة معه غالبة عليه قد فـرغ عن كل ما سواه لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غـيره أي شـيء كـان فـإذا اشـتغل بـذكر الله تعـالى وهو المقصـود خلا لا محالة عن غـيره وعند ذلك يلزمه أن يـراقب وسـاوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما يتـذكر فيه مما قـدر مضى من أحواله وأحـوال غـيره فإنه مهما اشـتغل بشـيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الـذكر في تلك اللحظة وكـان أيضا نقصانا فليجتهد في دفع ذلك ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هـذه الكلمة جاءته الوسـاوس من هـذه الكلمة وأنها ما هي وما معـنى قولنا الله ولأي معـنى كـان إلها وكـان معبـــودا ويعتريه عند ذلك خـــواطر تفتح عليه بـــاب الفكر وربما يـــرد عليه من وســـاوس الشيطان ما هو كفر وبدعة ومهما كان كارها لذلك ومتشمرا لإماطته عن القلب لم يضـره ذلك وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعا أن الله تعـالى مـنزه عنه ولكن الشـيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره فشرطه أن يبـالي به ويفـزع إلى ذكر الله تعـالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قـال الله تعـالى وإما ينزغنك من الشـيطان نـزغ فاسـتعذ بالله إنه سـميع عليم وقال تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فـإذا هم مبصـرون وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شـيخه بل كل ما يجد في قلبه من الأحـوال من فـترة أو نشـاط أو التفـات إلى علقة أو صـدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشـيخه وأن يسـتره عن غـيره فلا يطلع عليه أحـدا ثم إن شـيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياســته فلو علم أنه لو تركه وأمــره بــالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته وإن علم إن ذلك مما لا يقـوى عليه مثله رده إلى الاعتقـاد القـاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه وينبغي أن يتأنق الشـيخ ويتلطف به فـإن هـذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها فكم من مريد اشـــتغل بالرياضة فغلب عليه خيـــال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة وذلك هو الهلاك العظيم ومن تجرد للـذكر ودفع العلائق الشـاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثـال هـذه الأفكـار فإنه قد ركب سفينة الخطر فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من الهالكين ولذلك قال

صلى الله عليه وسلم عليكم بدين العجائز حديث عليكم بدين العجـائز قـال ابن طـاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثا لمحمد بن عبد الرحمن بن السلماني عن ابن عمرو عن النـبي صلى الله عليه وسـلم إذا كـان في آخر الزمـان واختلف الأهـواء فعليكم بـدين أهل البادية والنسـائي وابن السـلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسـخة كـان يتهم بوضـعها انتهى وهـذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلماني والله أعلم وهو تلقي أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير فـإن الخطر في العدول عن ذلك كثير ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في المريد فإن لم يكن ذكيا فطنا متمكنا من اعتقاد الظاهر لم يشـغله بالـذكر والفكر بل يـرده إلى الأعمـال الظـاهرة والأوراد المتـواترة أو يشـغله بخدمة المتجـردين للفكر لتشـمله بـركتهم فـإن العـاجز عن الجهـاد في صف القتـال ينبغي أن يسـقي القـوم ويتعهد دوابهم ليحشر يـوم القيامة في زمرتهم وتعمه بركتهم وإن كان لا يبلغ درجتهم ثم المريد المتجرد للـذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثـيرة من العجب والريـاء والفـرح بما ينكشف له من الأحـوال وما يبـدو من أوائل الكرامات ومهما التفت إلى شـيء من ذلك وشـغلت به نفسه كـان ذلك فتـورا في طريقه ووقوفا بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمـره ملازمة العطشـان الـذي لا ترويه البحـار ولو أفيضت عليه ويـدوم على ذلك ورأس ماله الانقطـاع عن الخلق إلى الحق والخلـوة قـال بعض السياحين قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق فقال أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق وقال مرة قلت له دلني على عمل أجد قلـبي فيه مع الله تعالى على الـدوام فقـال لي لا تنظر إلى الخلق فـإن النظر إليهم ظلمة قلت لا بد لي من ذلك قال فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة قلت لا بد لي من ذلك قـال فلا تعـاملهم فـإن معـاملتهم وحشة قلت أنا بين أظهـرهم لا بد لي من معـاملتهم قـال فلا تسـكن إليهم فـإن السـكون إليهم هلكة قلت هـذا لعلة قـال يا هـذا أتنظر إلى الغـافلين وتسـمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعـالى على الـدوام هـذا ما لا يكـون أبدا فإذا منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بـأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة فـإذا حصل قلبه مع الله تعـالى انكشف له جلال الحضـرة الربوبية وتجلى له الحق وظهر له من لطـائف الله تعـالى ما لا يجـوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلا وإذا انكشف للمريد شـيء من ذلك فـأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظا ونصـحا ويتصـدى للتـذكير فتجد النفس فيه لـذة ليس وراءها لـذة فتدعوه تلك اللـذة إلى أن يتفكر في كيفية إيـراد تلك المعـاني وتحسـين الألفـاظ المعـبرة عنها وتـرتيب ذكرها وتزيينها بالحكايـات وشـواهد القـرآن والأخبـار وتحسـين صـنعة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحيـاء منك لقلـوب المـوتى الغـافلين عن الله تعـالى وإنما أنت واسـطة بين الله تعـالى وبين الخلق تـدعو عبـاده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكـون أحسن كلاما منه وأجزل لفظا وأقدر على اسـتجلاب قلـوب العـوام فإنه يتحـرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كـان محركه كيد القبـول وإن كـان محركه هو الحق حرصا على دعـوة عبـاد الله تعـالى إلى صـراطه المسـتقيم فيعظم به فرحه ويقـول الحمد لله الـذي عضدني وأيدني بمن وازرني على إصلاح عباده كالذي وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه إذ وجـده ضـائعا وتعين عليه ذلك شـرعا فجـاء من أعانه عليه فإنه يفـرح به ولا يحسد من يعينه والغافلون موتى القلوب والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففي كثرتهم اسـترواح وتناصر فينبغي أن يعظم الفرح بذلك وهذا عزيز على الوجود جـدا فينبغي أن يكـون المريد على حـــذر منه فإنه أعظم حبائل الشـــيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قـال الله تعـالى بل تـؤثرون الحياة الدنيا ثم بين أن الشر قديم في الطبـاع وأن ذلك مـذكور في الكتب السـالفة فقـال إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى فهـذا منهـاج رياضة المريد وتربيته في التدريج إلى لقاء الله تعالى فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي فإن أغلب الصـفات على الإنسـان بطنه وفرجه ولسـانه أعـني به الشـهوات المتعلقة بها ثم الغضب الـذي هو

كالجند لحماية الشــهوات ثم مهما أحب الإنســان شــهوة البطن والفــرج وأنس بهما أحب الدنيا ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه وإذا طلب المـال والجـاه حـدث فيه الكـبر والعجب والرياسة وإذا ظهر ذلك لم تســمح نفسه بــترك الــدنيا رأسا وتمسك من الــدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور فلهـذا وجب علينا بعد تقـديم هـذين الكتـابين أن نسـتكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى كتاب في كسر شهوة البطن والفرج وكتــاب في آفـات اللســان وكتــاب في كسر الغضب والحقد والحسد وكتــاب في ذم الــدنيا وتفصــيل خدعها وكتاب في كسر حب المال وذم البخل وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه وكتـاب في ذم الكبر والعجب وكتاب في مواقع الغـرور وبـذكر هـذه المهلكـات وتعليم طـرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى فـإن ما ذكرنـاه في الكتـاب الأول هو شرح لصفات القلب الذي هو معدن المهلكات والمنجيات وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب أما تفصـيلها فإنه يـأتي في هـذه الكتب إن شـاء الله تعـالى تم كتـاب رياضة النفس وتهـذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصـطفى من أهل الأرض والسـماء وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.